- ما هو المرض... وما هو بالضبط الطبيعي؟
- القلق والجزع والخوف
- اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع (ASPD)
- أموال الصحة العقلية وعلاقتها بالصناعة الدوائية
- الخلاصة

٥. الاختلالات الكيميائية: سبب الخطية؟

- نظرية التطور: الدعامة الأولى
- الإنسان ليس فأرًا: دحض الدعامة الأولى
- عقيدة الإنسان: الدعامة الثانية
- بالإثم صوِّرت: دحض الدعامة الثانية
- المال: الدعامة الثالثة
- ماكينة الصحة العقلية
- تأثير الصناعة الدوائية
- هل تناول عقاقير الصحة العقلية خطية؟
- نظرية الاختلالات الكيميائية في الاكتئاب
- السبب والنتيجة
- ملاحظات ختامية

٦. السقوط في الخداع

- ما هو الإنجيلي؟
- هل يوجَد لعلم النفس الدنيوي مكان في الكنيسة الإنجيلية؟
- لماذا أصبح علم النفس شائعًا جدًا في المسيحية الإنجيلية؟
- الإنجيلية الجديدة النفسانية
- كنيسة التعافي العلاجي
- الخلاصة

الفصل الأول

وصفة طبية للرجاء الزائف والشر

إن النموذج الطبي للسلوك الإنساني عندما يصل إلى إستنتاجاته المنطقية، فإنه يكون أحمقًا وغير فعَّال. فهو لا يجيب على الأسئلة المطروحة عليه، ولا يُقدِّم خدمة جيدة، ويؤدي إلى سيل من السخافات اللائقة بالسيرك الروماني.

إ. فولر توري، طبيب (E. Fuller Torrey, M.D.)

من كتاب: موت الطب النفسي[1]

لزمن طويل، إنقاد الناس لأن يصدقوا بأن الشخص الذي يعاني من زيادة في مشاكل الحياة يحتاج إلى تدخُّل طبي وعلاج نفسي متخصِّص، وبذلك يسمحوا «للمريض» بأن يتأهَّل «للمرض»... ومثل هذا الرأي هو هراء خطير. فإن لم نكن مرضى فنحن أصحاء، بالرغم من أننا قد نكون غير سعداء.

جارث وود (Garth Wood)

من كتاب: أسطورة العصاب[2]

إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ

الرسول بولس، **رومية٣:٢٣**

1 E. Fuller Torrey, M.D., The Death of Psychiatry (Radnor, PA: Chilton books company, 1974), p.24

2 Garth Wood, The Myth of Neurosis (New York, NY: Harper &Row Publishers, 1986), p.1

مفردات جديدة

يُمكن للكلمات أن تكون قوية. يُمكنها أن تُلهِم ويُمكنها أن تريح. يُمكن للكلمات أن تدفعنا للعمل. ويُمكنها أن تُهدِّئ الجمع الصاخب وأن تُسكِّن طفلًا مرتعبًا. كلمات مثل "Sola Fide" (أي الإيمان وحده) قد شكَّلَت المسيحية. وكلمة مثل "الحرية" تُشكِّل عالمنا. والكلمات، "هذه خطوة واحدة صغيرة للإنسان، ولكنها قفزة هائلة للإنسانية" ساعدت في تشكيل جيل. الكلمات تؤثِّر في الأفكار والسلوك. وتغيير إستخدام كلمة يُمكنه أن يُحدث عواقب بعيدة المدى. لنتأمَّل في كلمة «شاذ». فإذا سمعتها في الحوار، فإن معناها منذ ١٠٠ عام لم يكن مثل ما تعنيه اليوم. غالبًا ما يكون تأثير الكلمات على الثقافة هادئًا وبطيئًا. في أحيان يُعتبَر التأثير إيجابيًا، وفي أحيان يكون سلبيًا.

في منتصف الستينيات من القرن الماضي، حدثت واقعة بارزة مرتبطة بالكلمة في العالم الإنجيلي. وكان لهذه الواقعة تأثيرًا مدمِّرًا على الكرازة وعلى تكريس المؤمنين. ومع ذلك، فبالرغم من العواقب المدمِّرة، مرَّت هذه الواقعة بدون أن يلاحظها الكثير من المسيحيين.

في ذلك الوقت، بدأ تغيير كبير في الطريقة التي يرى ويتعامل بها المسيحيين مع الخطية. فقد توقَّفت الكنيسة عن تسمية السلوك الخاطئ والمنحرف «خطية» وبدأت تدعوه «مرضًا». فالخاطئ الجنسي الذي كتب عنه بولس (كورنثوس الأولى٦:٩) أصبح مدمنًا للجنس. والسارق (كورنثوس الأولى٦:١٠) أصبح مصابًا بهوس السرقة. والسكّير (كورنثوس الأولى٦:١٠) أصبح مدمنًا للكحول. والطفل المتمرد

(تيموثاوس الثانية٣:٢) أصبح مصابًا «بإضطراب العناد الشارد» Oppositional Defiant Disorder. والعائلة التي فيها الزوج لا يعمل، والزوجة لا تهتم بالمنزل، والأطفال لا يطيعون، لم تعُد تُعتبَر خاطئة؛ إنها مختلَّة. والكاذب أصبح كاذبًا قهريًا. والمقامر أصبح مقامرًا قهريًا. والوثني أصبح شخصًا يعاني من الوسواس القهري. **«وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زِنىً عَهَارَةٌ نَجَاسَةٌ دَعَارَةٌ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ سِحْرٌ عَدَاوَةٌ خِصَامٌ غَيْرَةٌ سَخَطٌ تَحَزُّبٌ شِقَاقٌ بِدْعَةٌ حَسَدٌ قَتْلٌ سُكْرٌ بَطَرٌ» (غلاطية٥:١٩-٢١)** تم إعادة تعريفها بإستخدام كلماتطبية نفسية.

إن وَضع الخطية ضمن فئة الأمراض يُضعف رسالة الخلاص. فهي تنحي جانبًا الوسيلة التاريخية اللغوية لتفسير الكتاب المقدَّس وتستبدلها بتفسير متمركز حول مرض الجسد. هذا التفسير ينظر للإنسان بإعتباره ضحية مريضة بدلًا من إعتباره خاطئًا مسئولًا أمام الله. وهو يستبعد الحاجة إلى التوبة. وبذلك، فإن تعليم الفساد الكامل للإنسان قد قُوِّض. والذنب والإثم يختفيان ولا تكون هناك حاجة لمخلِّص. وبطريقة مماثلة، يُعاق التكريس. فلم تعد هناك حاجة للتوبة والتغيير؛ ولا توجَد حاجة للتلمذة والنمو الروحي. ويُخدَع المؤمنون بالإعتقاد بأنهم مرضى وبحاجة للشفاء. وهذا التفسير يلغي المُحاسبَة. على سبيل المثال، إذا كان أحد الأشخاص مصابًا بالإنفلونزا، فهو مريض ويتغيَّب عن العمل. فلا يوجَد خطأ والشخص لا يُحاسب شخصيًا على المرض من صاحب العمل. إذا كان السكير مصابًا بمرض يُدعى إدمان الكحول، فهو لم يعد محاسبًا عن سلوكه؛ وبدلًا من ذلك، فهو مريض. فهذا ليس خطأه.

وليست لديه حاجة لأن يتوب، هو يحتاج إلى اثنتي عشر خطوة لكي يتعافى. المرضي يحتاجون للشفاء. الخطاة يحتاجون المسيح.

لقد فقدت الكنيسة اليوم نظرتها لحقيقة الخطية بإعتبارها الأصل للكثير من المشاكل والمصدر للكثير من إضطرابات الناس. فالتعريفات والفئات (الكلمات) الكتابية قد تغيَّرت، وظهرت مفردات جديدة مرتبطة بالإضطرابات والأمراض والإختلالات الكيميائية بداخل الكنيسة. إنها مفردات علم النفس الإنساني. ويقوم القساوسة والعلمانيين سواء بتفسير المشاكل وصعوبات الحياة بإستخدام مصطلحات غير كتابية مثل القهر والإدمان والرهاب والإختلال ونقص الثقة بالنفس. ولقد تشرَّب المؤمنون ذات «التعاليم الغريبة» للإنسان التي حذر بولس تيموثاوس منها في رسالته الأولى (١:٣)، وبذلك يخلقون مسيحية مهجَّنة جديدة، تكاد لا تتميَّز عن علم النفس. والإيمان المسلَّم مرة للقديسين إختلط كليًا بنظريات فرويد (Freud) وروجرز (Rogers) وأدلر (Adler) وغيرهم. من المذهل حقًا الكيفية التي تحوَّلت بها الكنيسة المتسامحة إلى لاهوت فاسد! فالرجال والنساء المسيحيون هم أكثر ألفة بالعلامات والمفردات النفسية المعاصرة عن ألفتهم بالكتاب المقدَّس. يجب على القساوسة إدراك أنهم عندما يُحوِّلوا الخطية إلى مرض على المنبر أو في خدمتهم للآخرين، فإنهم يعظون «بإنجيل آخر». كتب بولس:

إِنِّي أَتَعَجَّبُ أَنَّكُمْ تَنْتَقِلُونَ هكَذَا سَرِيعًا عَنِ الَّذِي دَعَاكُمْ بِنِعْمَةِ الْمَسِيحِ إِلَى إِنْجِيلٍ آخَرَ! لَيْسَ هُوَ آخَرَ، غَيْرَ أَنَّهُ يُوجَدُ قَوْمٌ يُزْعِجُونَكُمْ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُحَوِّلُوا إِنْجِيلَ الْمَسِيحِ. (غلاطية١:٦-٧)

وبينما أعمت الكنيسة نظرها عن كلمة الخطية، فما زالت هناك لمحات منها بين الحين والآخر. فالخطية لم تختفِ تمامًا من مفرداتنا. وحتى الأشخاص «غير المتدينين» يستخدمون الكلمة في نقاشات جادة. والمسيحيون ما زالوا يتكلَّمون عن الخطية، وبكلمات أخرى، خطية آدم التي أدت إلى السقوط ونتج عنها طرده من جنة عدن. ولكن، يكون هناك كلام قليل عن الخطية الشخصية والإحباط والقلق والخوف والذنب والمشاعر الأخرى أو الأعراض الجسدية التي تسببها. وغالبًا، يصبح المؤمنون وغير المؤمنين أكثر وقارًا وعصرية عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الخطية. ففي النهاية، لا يريد الشخص أن يتعرض لخطر أن يُعتبَر غير متسامح، أو عديم الإحساس، أو رجعي أو ثوري. يجب على المرء أن يكون حريصًا أن يستخدم الأحاديث واللغة (الكلمات) المُصادَق عليها نفسيًا والتي تكون غير توجيهية، وغير حُكْمية وغير هجومية.

الكلمات العالمية في مواجهة الكلمات الكتابية

إن قدرة اللغة والكلام هي أحد الإمكانات العظيمة التي أعطاها الله للإنسان. وبالرغم من أنها تبدو بسيطة، فإن اللغة هي أحد الخواص التي تميِّز الإنسان عن سائر خليقة الله. وبين كل الأشياء التي يفعلها الإنسان، فالكلام هو أهمها. إن تفرُّد الكلمات يتأكَّد بإعلان الله عن نفسه للإنسان من خلال كلمته. يسوع المسيح نفسه هو الكلمة الحية. وعندما تكلَّم الله وكتب، فقد رفع اللغة إلى موضِع أهمية. فاللغة المنطوقة والمكتوبة أصبحت الوسط الرئيسي للحق. فمن خلال الكلمات، أعلن الله عن نفسه. ومن خلال الكلمات، أعلن الله خططه ومقاصده. ومن خلال الكلمات،

عرَّف الله وشرح وفسَّر العالم من حول آدم وحواء. قال الله لهم:

«أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ». وَقَالَ اللهُ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا». وَكَانَ كَذلِكَ. (تكوين١:٢٧-٣٠)

تكلَّم الله، ولكن الشيطان تكلَّم كذلك. فقد واجه سلطان الله تحديًا وتم الطعن في كلماته. لقد كانت للشيطان طريقة مختلفة تمامًا في شرح وتفسير عالم آدم وحواء:

وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». (تكوين٣:١-٥)

نحن نعيش في عالم حيث توجَد الكثير من التفسيرات لنفس مجموعة الحقائق. أحد الأشخاص ينظر إلى فراشة ويتأثَّر بعظمة الله الذي خلقها. وآخر ينظر إلى ذات الفراشة ويتأثَّر بقدرة التطور على صُنع مثل هذه الحشرة الرقيقة. أحد الأشخاص ينظر إلى سلوك طفل ويرى مرضًا يُقال

بأنه يحدث بسبب إختلال كيميائي في المخ والذي يُمكن تصحيحه بإستخدام العقاقير. وآخر ينظر إلى سلوك طفل فيرى تمرُّدًا وخطية.

إنها ليست الحقائق (سلوك الطفل)، بل التفسيرات لهذه الحقائق (الخطية في مواجهة المرض) هي ما يُمثِّل لُب المسألة. فالكثير من تفسيرات العالم والحياة لا تُميِّز سلطان الله ولذلك فهي غير متوافقة مع النظرة الحياتية الكتابية. الأشياء الصحيحة لا تُقال لأن الأشياء الصحيحة لا يُعتقَد بها. لقد إستمع آدم وحواء للحية وصدقوا تفسيرًا مناقضًا لحق الله. ومن هذه اللحظة فصاعدًا، إندلعت حرب الكلمات. واليوم، يستمع المسيحيون إلى تفسير الإنسان الخاطئ (أو تفسير الحية) للحقائق، بدلًا من تفسير الله.

يتورَّط المسيحيون في النمو المنطقي لحرب الكلمات كل يوم. إنها حرب أفكار. وبينما يفكِّر معظم المسيحين، بشكل مفهوم، في الحرب من حيث أبعادها الروحية و«إرتباطها بالعالم الآخر»، فإننا ندرك أنه يوجَد جانب فكري للحرب والذي لا يجب إغفاله. كتب بولس:

أَخِيرًا يَا إِخْوَتِي تَقَوَّوْا فِي الرَّبِّ وَفِي شِدَّةِ قُوَّتِهِ. الْبَسُوا سِلاَحَ اللهِ الْكَامِلَ لِكَيْ تَقْدِرُوا أَنْ تَثْبُتُوا ضِدَّ مَكَايِدِ إِبْلِيسَ. فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ احْمِلُوا سِلاَحَ اللهِ الْكَامِلَ لِكَيْ تَقْدِرُوا أَنْ تُقَاوِمُوا فِي الْيَوْمِ الشِّرِّيرِ، وَبَعْدَ أَنْ تُتَمِّمُوا كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَثْبُتُوا. (أفسس٦:١٠-١٣)

ويواصِل بولس ليكتب عن العناصر المختلفة في السلاح المسيحي. هناك القطع الدفاعية وقطعة واحدة دفاعية وهجومية؛ «**سَيْفَ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ كَلِمَةُ اللهِ**» (**أفسس ٦: ١٧**). فإذا أمكن لكلمة الله أن تُبطَل في حياة المسيحي، فإنه يبقى بدون سلاح هجومي للمعركة. فهو يتعرض للضرب مرة تلو الأخرى، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بهجمة مضادة. فبالنسبة لأي خبير إستراتيجي حربي، وفي هذا الشأن بالنسبة لأي شخص، يُمكن للإستراتيجية الدفاعية بمفردها أن تُعتبَر إستراتيجية خاسرة.

لقد دخلت الكنيسة دائمًا في معارك دفاعية تشمل الأفكار والكلمات. وتوجَد هذه المعارك بطول العهد الجديد وتاريخ الكنيسة. فقد كان هناك جدالات حول هوية المسيح وطبيعته (متى١٦:١٣). وقد كان هناك نزاعات حول قيامة المسيح الجسدية (أعمال١٧:١٨). وقد كانت هناك خلافات ما إذا كان على المرء أن يحفظ ناموس موسى إلى جانب الإيمان لكي يخلُص (أعمال١٥:٥)

في رسالة بولس لتيموثاوس، تحدَّث عن قلقه بشأن الفلسفات العالمية التي يتم تعليمها في أفسس (تيموثاوس الأولى١:٣). ولقد استمرت معركة الأفكار والكلمات عبر القرون إذ ظهرت الأفكار الهرطوقية (المُضلِّة) واحدة تلو الأخرى. وتضارُب الأفكار والفلسفات هو ما أدى بالكنيسة المُبكِّرة إلى تنظيم تصريحاتها بالمعتقدات التعليمية، مثل ألوهية المسيح، وتميُّز الروح القدُس، والثالوث وما إلى ذلك. أثناء العصور الوسطى، زحف الإنحراف إلى الكنيسة، وحرب الأفكار المرتبطة بنقاوة العهد الجديد والخلاص بالنعمة بمفردها من خلال الإيمان وحده بالمسيح يسوع تم خوضها بواسطة المُصلحين.

في القرن الثامن عشر، أصبح الإنسان «مستنيرًا» وآمن مُتفائلًا بأن قدراته الفكرية ومناهجه العلمية سوف تؤدي إلى مستقبل أكثر إشراقًا بدون الله. وفي القرن التاسع عشر، ظهرت المشكلات والتحديات من الداروينية والفرويدية. منذ بدايتها، لقد خاضت الكنيسة المناوشة تلو الأخرى في منافسة النظرات الحياتية والأفكار والكلمات.

والنظرة الحياتية هي مجموعة من المعتقدات التي تُشكِّل الطريقة التي ينظر بها الإنسان إلى عالمه. فهي العدسة التي من خلالها يُعالج الإنسان الأحداث في حياته. تُوجَد نظرة حياتية كتابية، ونظرة حياتية طبيعية، وهكذا. وكل إنسان له نظرته أو نظرتها الحياتية. إذن، فالنظرة الحياتية الصحيحة هامة جدًا لفهم الكلمات والأفكار والأحداث والتصرفات. العديد من الخلافات بين الأفراد تنجم عن نظراتهم الحياتية المختلفة. فالملحدون والمسيحيون، البروتستانت والروم الكاثوليك، والأرثوذكس، والكالفينيين والأرمن، وغيرهم لهم نظرات حياتية مختلفة. وفي كل حالة، أنشأ الإنسان شبكة، إن جاز التعبير، والتي تُصفِّي أفكارًا ونقاشات (كلمات) محددة مؤدية به إلى إعتقاد أو إلى حقيقة مُفسَّرة. وهؤلاء الذين تختلف نظراتهم الحياتية عادة ما يعتبرون أولئك الذين لهم آراء أخرى مُخطئين. هل أنت مُرتبك؟ اعلم هذا: كلمة الله هي الحق المُطلَق!

يحتاج المسيحيون لأن يبدأوا في التفكير في المسيحية بإعتبارها ليست مجموعة من الأجزاء والقطع من الأفكار التي نؤمن بها، بل بإعتبارها نظام إدراكي كامل - نظرة حياتية شاملة، كما تم تصميمها في الأصل. إن تكسير أي نظرة حياتية إلى أجزائها المنفصلة سوف يشوِّه طبيعتها

الحقيقية. وخلط أجزاء محددة من نظرة حياتية مع أخرى منافِسة يؤدي إلى الارتباك والفوضى. فكل نظرة حياتية تحمل افتراضاتها. وكل مجموعة من الافتراضات غالبًا ما تكون غير متوافقة مع غيرها. ولكن أجزاء محددة من نظرات حياتية مختلفة قد تتشابه، مثل دائرتان مختلفتان اختلافًا ضئيلًا مركَّبتان فوق بعضهما البعض. فهما متماثلتان تقريبًا، ولكن لا يُمكن التوفيق بينهما بسهولة. على سبيل المثال، رجلان لهما نظرتان حياتيتان مختلفتان قد يكونا كلاهما معارضين للإجهاض أو مناصرين للاختيار. وقد يكونا متشابهين في سياستهما وأخلاقهما. ولكن، تحدث مشكلة هامة عندما تندمج عناصر كبرى من نظرات حياتية متعارضة. فالنتيجة، أي «الإنتقائية»، تستعير من نظرات حياتية متنوعة، وهي ممارسة شائعة في المشورة «المسيحية» اليوم.

إن علم الإنسان الكتابي، والذي يُعلِّم بأن الإنسان قد صُنع على صورة الله وشبهه، تتحد مع علم الإنسان الطبيعي التطوري، والذي يرى الإنسان باعتباره مجرد كائن بيولوجي متطوِّر. والتكاملية الإنتقائية الناتجة، مثل علم النفس الدنيوي النقي، تدعو الخطية مرضًا عن طريق خلط نظرتين حياتيتين متناقضتين. إنها محاولة لأن تكون صحيحة للعالمين كليهما. وببساطة، إن تكامُل علم النفس مع اللاهوت المسيحي بواسطة مؤمنين مخلصين ولكنهم مُضلَّلين قد أجاز في المجتمع المسيحي تصنيف الخطية بإعتبارها مرضًا. وكنتيجة لذلك، أصبحت الكنيسة مقتنعة بأن الأنظمة والنظريات المُحكَمة، والمؤسسة على نظرات حياتية متنافسة، هي إضافة وتكملة هامة لكلمة الله. يدين الرسول بولس مزج «حكمة» الإنسان الخيالية أو نظرته الحياتية مع حكمة الله الحقيقة ونظرته الحياتية:

الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا أَيْضًا، لاَ بِأَقْوَالٍ تُعَلِّمُهَا حِكْمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ، بَلْ بِمَا يُعَلِّمُهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ، قَارِنِينَ الرُّوحِيَّاتِ (الأفكار) **بِالرُّوحِيَّاتِ** (الكلمات). **(كورنثوس الأولى٢:١٣)**

لقد إعتاد الإنجيليون أن يُفكِّروا ويتكلموا نفسيًا. والكلمات الكتابية، الكلمات التي علَّمها الروح القدس، تم استبدالها بكلمات عالمية، كلمات تُعلمها الحكمة الإنسانية. كلمات الله الصادقة، والتي تُعتبَر حماقة، تم إستبدالها بكلمات الإنسان، والتي تُعتبَر حكمة. كلمات مثل «مصاب بهوس السرقة» و«مدمن للكحول» (الكلمات التي تعلمها الحكمة الإنسانية) هي كلمات مُضلِّلة. فهي كلمات تلطيفية للسلوكيات الخاطئة. ولا يشير الكتاب المقدَّس مطلقًا لإنسان بإعتباره مصابًا بهوس السرقة أو مدمنًا للكحول. إن كلمة الله تشير إلى الشخص الذي يسكر بشكل معتاد بإعتباره سكّيرًا. والشخص الذي يسرق بشكل معتاد يُدعى سارقًا. في النموذج المرضي هو يحتاج إلى الشفاء، بينما في نموذج الله هو بحاجة لأن يتوب، وأن يخلع عادته الخاطئة، وأن يُجدِّد ذهنه، وأن يلبس البديل الكتابي. يجب على المسيحيين استخدام الكلمات التي يُعلّمها الروح القدس إذ أنها تُصوِّر بدقة حقيقة الله. كتب الرسول بولس:

اُنْظُرُوا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ يَسْبِيكُمْ بِالْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ، حَسَبَ تَقْلِيدِ النَّاسِ، حَسَبَ أَرْكَانِ الْعَالَمِ، وَلَيْسَ حَسَبَ الْمَسِيحِ. (كولوسي٢:٨)

«وليس حسب المسيح» هي العبارة المحورية التي إستخدمها بولس ليصف نظام التعليم (النظرة الحياتية) التي شقت طريقها في كولوسي. لقد كانت الفلسفة تضع حكمة الإنسان في مقابلة

مع حكمة الله. وعلى مدى قرون، اتَّخذت «حكمة الإنسان» أشكالًا مختلفة، بما في ذلك حركة الخطية - المرض في أيامنا الحاضرة. لقد تنوَّعت مع الزمن والثقافة، ولكنها كانت دائمًا موجودة في مظهر أو آخر، لكي تستبدل كلمة المسيح الوافية بحكمة الإنسان.

الإعلان بأن الناس مرضى

في منتصف الستينيات كانت كلمة «مرض» تعني مرضًا جسديًا. والحيثيات لتحديد المرض كانت حدوث تغيير أو تبديل أو شذوذ في التركيب أو الوظيفة (علم التشريح Anatomy وعلم وظائف الأعضاء Physiology) للجسم كما تحدده الاختبارات التدخُّلية وغير التدخُّلية أو تاريخ المريض ومن خلال الفحص الجسماني. وبحسب قاموس ويبستر الشامل، فإن المرض يُعرَّف بإعتباره «تركيب أو نشاط فسيولوجي مختل أو شاذ في الكائن الحي ككل أو في أي جزء من أجزائه.»[3] والإختلالات في هذه النتائج تجعل من الممكن لأي طبيب أو أخصائي أمراض أن يُميِّز بين وجود المرض أو غيابه. على سبيل المثال، يقوم طبيب الأسرة بعمل مزرعة للحلق ويكتشف وجود البكتريا السِبَحية المُعدية. ويقرأ طبيب الأشعة نتائج فحص الرنين المغنطيسي والتي تشير إلى وجود ورم في المخ. وطبيب الأمراض الجلدية يأخذ عينة من شامة، ويُرسلها إلى المعمل حيث يكتشف أخصائي الأمراض عدم وجود مرض أو إختلال. وبإستخدام الوسائل الموضوعية (مزرعة الحلق، فحص الرنين المغنطيسي، العينة، وغيرها) لإكتشاف الإختلالات

3 Marckwardt AH, Cassidy FG, McMillan JB (eds.) Webster Comprehensive Dictionary. International Edition.(J. G. Ferguson Publishing Company, 1992, Volume 1), p.365.

الجسدية، يُمكن للطبيب أن يضع تشخيصًا. إن التشريح أو الفسيولوجيا المختلة تؤكِّد وجود أو غياب المرض.

د. توماس ساز (Dr. Thomas Szasz)، وهو طبيب نفسي وناقد معروف للطب النفسي ومؤلف لمئات الأبحاث والكتب، يقول عن المرض:

«كثيرًا ودائمًا ما يوجَد جدال حول مشكلة تعريف المرض كما لو كانت قضية علمية أو طبية أو منطقية. وعندما نفعل هذا، فإننا نتجاهل حقيقة أن التعريفات يضعها أشخاص، وأن الأشخاص المختلفين لهم اهتمامات مختلفة، وبذلك، فإن التعريفات المختلفة للمرض تعكس ببساطة الاهتمامات والإحتياجات المتباعدة للمُعرِّفين»[4]

ويواصل ساز (Szasz) فيقول:

«... إن الخطوة الأولية الحاسمة التي أتخذها هي أن أُعرِّف المرض كما يُعرِّفه أخصائي الأمراض... بإعتباره خللًا كريبيًا أو وظيفيًا في الخلايا أو الأنسجة أو الأعضاء أو الأجسام. وإذا أظهرت تلك الظواهر المعروفة بالأمراض العقلية نفسها بمثل هذه الإختلالات التركيبية أو الوظيفية، إذًا فهي أمراض، وإن لم تفعل، فهي ليست كذلك.»[5]

توجَد قيود على الطبيب عندما يسعى إلى تحديد وجود مرض. في الماضي، كان الطبيب مُقيَّدًا، ومربوطًا ومحدودًا بالأسلوب العلمي. كان المرض يتم اكتشافه استنادًا إلى اختبارات موضوعية. وبحسب

4 Thomas Szasz, The Idea and Its Consequences. (New York, NY: John Wiley and Sons, 1987), p.17.

5 Ibid., p. 12.

الحيثيات الحديثة الرائجة اليوم، فبدلاً من إكتشاف الأمراض بالأساليب الموضوعية، يُمكن أن يُصرَّح بأن الشخص مريض استنادًا فقط إلى شكواه وإلى الرأي الشخصي لمُقدِّم الخدمة الطبية.

على سبيل المثال، يشكو أحدهم، «أيها الطبيب، أنا أعاني من الصداع لأسابيع عديدة ماضية.» فيجيب الطبيب، «لديك ورم في المخ. وأنا بحاجة لأن أجري لك عملية جراحية في الصباح الباكر.» لقد صُدمت فسألته، «كيف لك أن تعرف أن لدي ورم في المخ؟» يقول الطبيب، «لقد قلت بأنك تعاني من الصداع.» وفي عدم تصديق تُجيبه، «ولكن أيها الطبيب، ألا يُمكن أن يكون هذا الصداع بسبب إلتهاب في الجيوب الأنفية، أو إنخفاض في مستوى السكر في الدم، أو إرتفاع ضغط العين، أو الضغط العصبي، أو قلة النوم؟»

هل ستسمح للطبيب أن يجري عملية جراحية بالمخ استنادًا فقط إلى شكواك وإلى رأيه الشخصي؟ بالطبع لا! فالجراحة أمر خطير. وتناول عقاقير لمرض عقلي مُعلن وقد تم تشخيصه بواسطة أساليب شخصية هو أيضًا أمر خطير. عندما تُدعى الخطية مرضًا، فإن روابط وحدود الحس الجيد تُزال ويتم إعلان الناس بإعتبارهم مَرْضَى بطرق شخصية.

إن حيثيات التشخيص اليوم تقول بأنه ليس من الضروري أن يكون هناك تغيير أو خلل في تركيب الجسم لكي يُصاب الشخص بالمرض. فإذا كان الشخص يتصرف بطريقة سيئة، أو بشكل غريب، أو يفشل في ممارسة ضبط النفس، فمن الممكن التصريح بأنه مريض. وفي النهاية، الشخص الذي يقتل إنسانًا آخر، لابد أن يكون مريضًا.

فالأشخاص الطبيعيون لا يقتلون أو يتصرفون بطرق شريرة. ففي الأعماق، يوجَد شيء صالحبداخل كل إنسان، صحيح؟ خطأ. (انظر إرميا١٧:٩). يقول الكتاب أن قايين قتل هابيل وقد دعا الله ذلك خطية. وداود قتل أوريا ودعا الله ذلك خطية. قال يسوع، **«لأَنْ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شِرِّيرَةٌ: قَتْلٌ، زِنىً، فِسْقٌ، سِرْقَةٌ، شَهَادَةُ زُورٍ، تَجْدِيفٌ» (متى١٥:١٩)**. وكل واحدة من هذه الخطايا تم إعلانها الآن باعتبارها مرضًا. لم يقل يسوع أنها تخرج من قلب مريض، بل من القلب الشرير تخرج الخطية.

إن صناعة الصحة العقلية قد حوَّلت مصاعب ومتاعب الحياة اليومية المألوفة إلى أمراض مُعلَنَة. فالطفل المتمرد لديه إضطراب سلوكي. والشخص الذي يُسرف في الأكل لديه اختلال غذائي. والشخص القلق أو المكتئب لديه اضطراب مزاجي. ويوجَد اضطراب في التكيُّف لدى الشخص الذي لا يستطيع أن يتأقلم مع وظيفته الجديدة. والمرأة المتفاخرة والمغرورة لديها اضطراب الشخصية النرجسية. والشاب الذي يُقبض عليه بشكل متكرر بسبب تخريبه للممتلكات أو إزعاجه للآخرين أو السرقة هو مريض أيضًا. فلديه إختلال الشخصية المضادة للمجتمع. وحالات أخرى قد تتطلب عناية سريرية تتراوح بين عدم الرضا بالعمل وحتى المسائل الدينية مثل الشك في إيمان المرء أو قيمه. والأشخاص المُعرَّضون لخبرات الحياة المألوفة هم الآن مُدمَّرون ومجروحون ومُنتَهَكون ومصابون ومرضى. وهم بأنفسهم غير قادرين على التعامل مع أمراضهم. فالأمر يتطلب «خبيرًا» مُدرَّبًا لكي يستدل على المرض النفسي، ولكي يُشخِّص ويُصنِّف ويُميِّز خبرة الإنسان.

لقد سمحنا لعلم النفس الدنيوي أن يُفسِّر ما نقوله ونشعر به ونفعله. فهو يُفسِّر لنا كلماتنا وأمزجتنا وأفعالنا، وما تعنيه هذه الأشياء حقًا على مستوى «اللا وعي». فما يقوله شخص ما عن حادثة في الحياة وتأثيراتها يتم تفسيره في كثير من الأحيان عن طريق الطبيب النفسي إلى أفكار والتي تختلف تمامًا عما يتم وصفه. ثم يُقدِّم الطبيب النفسي تشخيصه كحقيقة، ويُطبِّقها على موقف الشخص، بينما يُحوِّله إلى ضحية ومريض مدى الحياة.

وتعاقب الأحداث يشبه الآتي:

١. يتم إنشاء نظرية الضحية بواسطة الطبيب النفسي؛

٢. يتم تطبيق النظرية، بإستخدام اللغة الباطنية لعلم النفس الدنيوي، على حالة الشخص؛

٣. تقوم النظرية بتحويل خبرة الشخص إلى إختلال أو مرض؛

٤. الطبيب النفسي فقط هو من يعرف كيف يُمكنه أن يُقدِّم الإغاثة؛

٥. إذن، تُخلق الحاجة للطبيب النفسي.

الإخلال النفسي أو الإمراض، كما يدعوه البعض، يُحوِّل الخبرات والمشاعر الاعتيادية إلى حالات مُختلَّة. فالقلق والتوجُّس والخوف والحزن والشك هي نموذجيًا جزء من اختبارات الحياة. فالبعض يُصابون بالقلق عندما يركبون المصعد أو يُحلِّقون بالطائرة؛ وآخرون عندما يكون عليهم أن يتكلموا أمام مجموعة كبيرة من الناس. البعض قد يُصيبهم الخوف

أثناء القيادة في شوارع المدينة؛ وآخرون يخافون من الظلام. وبالرغم من أن هذه كلها قد تكون مشاعر مُزعجة أو أحاسيس مُربكة وقد تُعرقل الحياة، إلا أنها خبرات إنسانية نموذجية. ولكن، بالنسبة للطبيب النفسي، كونك قلقًا يعني شيئًا آخر. إنه يعني أنك «مصاب بالقلق» أو «مصاب بإختلال تخوُّفي».

إن صناعة الصحة العقلية تأخذ الضحايا الأصليون للحوادث والإنتهاك والإهمال، إلخ، وتحتال عليهم ليصدقوا بأنهم أشخاص مُدمَّرون ومَرْضَى. وتتحول خبرات الحياة الإصابية إلى مشكلة شعورية مستمرة. فالسبب الإصابي عادة ما يترك أثرًا مرضيًا. على سبيل المثال، الرجل، والذي يُطرد من وظيفته بعد خمسة وعشرين عامًا (السبب أو الخبرة الإصابية) يتم تشخيصه لاحقًا بإعتباره مصابًا بإختلال ضغط ما بعد الإصابة (الأثر المرضي). والشخص الذي قد تم إنتهاكه (السبب أو الخبرة الإصابية) يتم تشخيصه بإعتباره مصابًا بإختلال الشخصية المذعورة (الأثر المرضي).

السبب الإصابي = أثرًا مرضيًا

السبب الإصابي المؤدي إلى أثر مرضي يتحقق بالتركيز على الإصابة السلبية والمُشدَّدَة. فالشخص يُفكر في نفسه الآن من منطلق الضغط أو المعاناة التي قد اختبرها. ويتم إخباره بأن الخبرة قد أضعفته. ولكي يتعافى، عليه أن يواجه الحقيقة بأن هذا الحادث كان إصابيًا. ويجب عليه بعد ذلك أن يواجهه، ويتحداه ويجتاز العملية النفسية التي تعني تغيير نفسه من ضحية Victim إلى ناجٍ Survivor.

الضحايا الحقيقيون لا يرغبون في أن يكونوا ضحايا على الإطلاق. فالمرأة التي تم اغتصابها تُفضِّل ألا يتم اغتصابها. ولا أحد يريد أن يتعرض لحادث سيارة. لا أحد يريد أن يُعتدى عليه أو يُسرق. فلماذا إذًا يريد الناس أن يتم تصنيفهم كضحايا نفسيين؟ الأمر بسيط، توجَد فائدة من كونك تصبح ضحية. فالضحية النفسي لديه تصريح بأن يحيا حياة مُختلَّة نفسيًا. وبمجرد أن يتم تشخيصه، فإنه يخطو إلى عالم آخر. وكونه مميَّزًا باعتباره ضحية لبعض إصابات الحياة الكبرى هي نقطة البداية لرحلة حيث يُعتبَر المُعالج كالراعي الذي يقود الضحية إلى أرض الشفاء الموعودة. وما يجعل المستقبل أكثر إشراقًا للشخص المُختَل عقليًا هي حالته كضحية. فهؤلاء الذين لم يتم تشخيصهم، عليهم أن يتعايشوا مع إحباطاتهم وفشلهم وندمهم وجرائمهم وخطاياهم. ولكن عالم الضحية النفسي يخلو من الذنب والعار والمسئولية. فأيًا كان الأمر، يوجَد سبب خارجي للتأثيرات المدمِّرة. لقد أزال المرض المُحاسبة والتي، بالتالي، قد أزالت الذنب. وبديهيًا فقد أزال أيضًا الحاجة إلى مُخلِّص أو لعمل الروح القدس في تقديس المؤمن.

لأن المسيحيين قد تلقَّنوا بشدة النموذج المرضي، فهم يقبلون التشخيص بلا شروط. والأشخاص الذين يتميزون بالكسل، وعدم المسئولية، والمرارة، والمملوئين برثاء النفس، أو الخبث أو اللا أخلاقية تم إعلانهم بإعتبارهم مَرْضَى. لقد تم اكتشاف الإيدز كمرض. وقد تم إعلان إدمان الكحول كمرض. لقد تم اكتشاف السرطان كمرض. وقد تم إعلان الاضطراب التخوُّفي الاجتماعي والاستغلال الجنسي

للأطفال كأمراض. عندما تُدعى الخطية مرضًا، فإن السلوك يتميَّز بإعتباره صحي أو غير صحي في مقابل صالح أو فاسد. لقد أصبح السكّيرين في نفس الفئة مع مرضى الألزهايمر. وأصبح الأطفال المعاندون في نفس الفئة مع الرجل المصاب بمرض في القلب. وأصبح القاتل في نفس الفئة مع مَن يعاني من السرطان. والرجل الذي يُقامر بمدخاراته ويفقد منزله بتسليمه لشركة الرهن العقاري هو في نفس الفئة مع فتاة صغيرة قد تم تشخيصها كمصابة بورم متقدِّم بالدماغ.

ليس من المدهش أن يدعو غير المؤمنين الخطية مرضًا. **«الإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ لاَ يَقْبَلُ مَا لِرُوحِ اللهِ لأَنَّهُ عِنْدَهُ جَهَالَةٌ» (كورنثوس الأولى٢:١٤).** ولكن ما يصعب تصديقه هو أن ما لروح الله أصبح جهالة بالنسبة للمسيحيين. والكنيسة نفسها أصبحت متواطئة مع العالم في مساعدة الناس لتبرير خطيتهم. الناس **«يَحْجِزُونَ الْحَقَّ» (رومية ١:١٨)** عندما يدعون الخطية مرضًا. لقد **«اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ» (رومية١:٢٥).** وكما يُعلِّم يعقوب، فإنهم ينجذبون وينخدعون من شهوتهم (يعقوب١:١٤).

لقد كانت فكرة الخطية بأكملها مكروهة دائمًا من العالم. منذ أن جرى آدم وحواء واختبئا وتغطيا وتبادلا اللوم في جنة عدن، والإنسان يحاول تبرير نفسه. وتسمية الخطية مرضًا تسمح للإنسان بأن يشعر شعورًا أفضل. فصورة ذاتية صحية هي أمر مستحيل إذا كان قلب الإنسان **«أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ» (إرميا١٧:٩).** أو كما يقول إشعياء:

«هُوَذَا الأُمَمُ كَنُقْطَةٍ مِنْ دَلْوٍ، وَكَغُبَارِ الْمِيزَانِ تُحْسَبُ... كُلُّ الأُمَمِ كَلاَ شَيْءٍ قُدَّامَهُ. مِنَ الْعَدَمِ وَالْبَاطِلِ تُحْسَبُ عِنْدَهُ.» (إشعياء٤٠:١٥،١٧)

والحل لهذه الكلمات «المدمِّرة» هو أن الإنسان يتمرد على ويَنقُض ويقلب كلمة الله رأسًا على عقب. ويُختزل السلوك إلى اختلالات كيميائية، أو نبضات كهربائية، أو مرض أو نقص الثقة في النفس. والمحاسبة الشخصية على الأفكار والسلوكيات يتم التنازُل عنها.

إذا كان هناك مثل ذلك الشيء المدعو إختلالات الشخصية المتعددة «الإعتبارية»، فيبدو أن الكنيسة مصابة بأحدها. فمن أحد جانبي فم الكنيسة، تقول بأن الإنسان خاطئ. ومن الجانب الآخر من فم الكنيسة، يُعتبَر الإنسان مريضًا. هل يُمكن أن ننكر تعليم الخطية عن طريق تسمية الخطية مرضًا ونظل نكرز بإنجيل يسوع المسيح؟ العظات وكتابات درس الكتاب المقدَّس، والكتب التي يكتبها المؤلفون المسيحيون المحبوبون مليئة بالصور التلطيفية للخطية. فالزاني قد يُدعَى للتوبة، ولكن إذا كان مريضًا فهو لم يعد خاطئًا. وبدلًا من ذلك، فهو يُعتبَر مدمنًا.

لا خطية، لا ذنب

إذا لم يكن الإنسان خاطئًا، إذًا فهو مريض يُعاني. هو ضحية لمعاملة الآخرين القاسية والعنيفة. ويتم لإخبارنا بأننا يجب أن نكون حساسين ومتسامحين ومتعاطفين، مدركين أن السلوكيات ذاتها التي كنا نعتبرها في السابق خاطئة هي الآن دليل على وجود الضحية والمرض.

تشجِّع الثقافة التي نعيش فيها جميع أنواع التوجُّهات والسلوكيات الخاطئة، ولكنها لن تحتمل الذنب والمشاعر الأخرى التي تنتجها الخطية. الإنسان لا يوجَد في الفراغ. هناك تبعات لأفعاله. وهذه التبعات هي جزء من لعنة الله على الإنسان كنتيجة للخطية. فالسلوكيات والتوجُّهات الخاطئة

تؤثِّر على الطريقة التي نفكِّر ونشعر بها. يُمكن للخطية أن تنتج مشاعر الذنب الشخصي والإكتئاب والقلق والخوف وهكذا. على سبيل المثال، أدى تصرُّف قايين الخاطئ إلى الاكتئاب (تكوين٤:٥-٧). ولقد اختبر داود الإكتئاب والقلق والعديد من الأعراض النفسية كنتيجة لعلاقته الآثمة ببثشبع (مزمور ٣٨). ولكن الإعتراف بالمسئولية والذنب لهو أمر غير مناسب ومتناقض مع المبدأ المعاصر لكرامة الإنسان وثقته بنفسه. ولذلك، فالشعور بالذنب يُنظر إليه باعتباره «عُصابًا». إنه إصلاح مختلّ يجب القضاء عليه. وبالرغم من الصوت المستمر لضمير الإنسان، فإن السلوك الخاطئ الذي يجعلنا نشعر بالذنب يجب أن يُنكَر.

والخطية باعتبارها مرضًا قد كسبت موطئًا لقدمها في تفكيرنا، فلم يعد هناك تفكير كثير في الخطية الشخصية. فنحن نقدِّم تمييزًا رمزيًا في العظات والحوارات لِمَا كانت في أحد الأيام كلمة قوية ومشؤومة، ولكن بالنسبة للغالبية، لقد اختفت مع فكرة الله الغاضب بأكملها. هل توقفنا عن ارتكاب الخطية؟ كلا، نحن فقط ندعوها شيئًا آخر. فالإنسان، منذ السقوط، أصبح خبيرًا في تغطية خطاياه. ومع ذلك، فنحن اليوم أكثر تجهيزًا في وجود التلطيفات النفسية للخطية. شيء ما هو خاطئ جدًا. وبإدعاء حالة الإنسان المريض أو الضحية، يُمكن للفرد أن يهرب من المسئولية عن كل شيء من القتل وحتى الكسل. جميع أنواع السلوك اللا أخلاقي والمنحرف والخبيث تُعتبَر الآن عرضًا لبعض الأمراض النفسية. لا أحد مسئول عن هذه الأفعال. ويعترف الناس بأنهم يشعرون بمشاعر مبهمة من الذنب الشخصي والقلق والإكتئاب، ولكن لا أحد يعترف بالخطية. هناك العديد من المرضى، ولكن من الصعب العثور على خطاة.

المسيحية ليس لها معنى بدون خطية. فالكنيسة تُعلِّم بأن »**اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا**» **(رومية٥:٨)**. وعلى الجانب الآخر، تدعو الكنيسة الخطية مرضًا. فما هو الحق؟ هل الخطية خطية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تدعوها الكنيسة في بعض الأحيان مرضًا؟ وإذا كانت الخطية مرضًا، فلماذا تدعوها الكنيسة في بعض الأحيان خطية؟ هل الكنيسة مرتبكة حقًا، أم أنها تخجل من استخدام كلمة خطية؟ هل الخوف من الإنسان جعلنا نخجل من الإنجيل؟ هل الكنيسة ترغب في إستبدال الصواب الكتابي بالصواب السياسي لكي تكون لها «حساسية الباحث» ولكي تحقق أعـدادًا مدهشة من الحضور؟ كتب بولس: « **فَإِنَّهُ إِنْ أَعْطَى الْبُوقُ أَيْضًا صَوْتًا غَيْرَ وَاضِحٍ، فَمَنْ يَتَهَيَّأُ لِلْقِتَالِ؟**» **(كورنثوس الأولى ١٤:٨)**. بالطبع يصدر صوت غير واضح من المنابر اليوم. وكنتيجة لذلك، فإن الكرازة والتلمذة والتكريس تعاني كلها بشدة في الكنائس اليوم.

لم يكن الرسول بولس خجولًا من الإنجيل (رومية١:١٦). والسبب في أنه كان متلهفًا للكرازة في روما هو أن الإنجيل كان هو الطريق الوحيد للخلاص. فالإنجيل لم يكن مجرد فلسفة جديدة في الحياة. وهو لم يكن مجرد فكرة جديدة، والتي من الممكن أن تكون مثيرة أو جاذبة للنقاش والجدال. كلا، إن الإنجيل يدور حول النجاة من الخطية. وبولس يضع الإنجيل فوق وفي مقابل الثقافة اليونانية، والتي وصلت إلى روما قبل ذلك بسنوات. إن دراسة الفلسفة مثيرة ولكنها تبدأ وتنتهي بأفكار الناس. فهي في النهاية تترك الناس حيث بدأوا. والفلسفة لا تفعل شيئًا حيال الخطية. إنها لا تُخلِّص الإنسان من ذنب، أو قوة أو تلوث الخطية. وهي لا تصالح بين الإنسان والله.

تتناول رسالة بولس لأهل رومية الأساسيات. ومع الاحترام للاهوت النظامي، فإن رسالة رومية هي أهم سفر في الكتاب المقدَّس. لقد لعِبَت دورًا أكثر أهمية وحسمًا في تاريخ الكنيسة من أي سفر آخر. بعض قادة الكنيسة العِظام تغيَّروا بينما كانوا يقرأون الرسالة إلى أهل رومية. على سبيل المثال، خلص أغسطينوس (Augustine) بينما كان يقرأ رومية ١٣. ولقد حارب أغسطينوس الهرطقة البيلاجيوسية ودحضها عن طريق تفسير رسالة رومية. وبينما كان لا يزال من الروم الكاثوليك ومعلمًا للاهوت في جامعة ويتنبرج، أعد مارتن لوثر (Martin Luther) سلسلة من المحاضرات حول رسالة رومية. وبينما هو يفعل هذا، تدريسه لتعليم التبرير بالإيمان بالمسيح يسوع وبعيدًا عن الأعمال أصبح حقيقة. وتحوَّل جون بنيان (John Bunyan) وجون ويسلي (John Wesley) إلى المسيحية عن طريق هذه الرسالة البارزة.

لقد أعلن بولس أن الله يقدِّم طريقًا للخلاص عن طريق الإيمان بيسوع المسيح. والسؤال هو لماذا فعل الله هذا؟ لماذا ترك المسيح السماء، ومات على الصليب وقام ثانية؟ يُمكن أن يُلخَّص السبب في الآية التالية:

لأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ، الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ (رومية١:١٨).

إن الجانب الأكثر إدهاشًا في تقديم بولس للإنجيل هو أنه يبدأ بغضب الله. والغضب يشير إلى كراهية الله للخطية. فإذا ميَّز المرء محبة الله، فعليه أيضًا أن يُميِّز كراهية الله. فكل ما يُعارض الله هو كريه بالنسبة لله. يقول بولس بأن بر الله قد أُعلن (رومية١:١٧)، مما يجعل الآية التالية،

«لأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ... عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ» أمرًا حتميًا (رومية١:١٨).

ولذلك فإن بولس لا يبدأ تقديم الإنجيل بالإنسان ومشكلاته، بل بالله الغاضب الذي قدأُهين بواسطة الإنسان الخاطئ. فهو لا يقول بأنه مستعد للكرازة بالإنجيل لهم لأنهم يعيشون حياة مهزومة ومليئة بالمشاكل وأن الإنجيل سوف يرفعهم من بين إحباطهم. وهو لا يقول بأنه مستعد لأن يكرز بالإنجيل لأنهم غير سعداء والإنجيل سوف يجعلهم سعداء من جديد. هو لا يبدأ بمشكلات ومتاعب الإنسان. ولا يبدأ بأن يخبرهم أن له اختبارًا رائعًا ويريدهم أن يختبروه أيضًا. يبدأ بولس بالحديث عن غضب الله على كل الناس بسبب الخطية. إن غضب الله على الإنسان الخاطئ هو الدافع للكرازة.[٦]

إن خلط المسيحية وعلم النفس الدنيوي قد خلق مناخًا أصبحت فيه كلمة خطية مُخفَّفَة عن معناها الحقيقي وأصبحت غير ضارة. فإذا لم يكن لغير المؤمن ضميرًا نحو الخطية، فإنه لن يقدر أن يفهم غرض المسيحية. وبالنسبة له، لن تصبح عبارة بولس عن غضب الله ذات معنى. وهـذا لا ينطبق فقط على غير المؤمنين بل وكذلك على المسيحيين المؤمنين. فالكثير من المسيحيين المؤمنين قد فقدوا ضميرهم للخطية. إذ يُعتبر الحديث عن المشكلات بإعتبارها نتيجة للسلوك الخاطئ قاسيًا وغير حساس أو حتى «غير مسيحي». لا أحد يريد أن يسمع

٦ طوال العهد الجديد فإن نقطة البداية عند إعلان الإنجيل هي غضب الله. على سبيل المثال، أول شيء قاله يوحنا المعمدان للناس الذين جاءوا ليستمعوا له كان أنهم يجب أن يتوبوا عن خطاياهم و»يَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي» (متى٣:٧). وبطرس في يوم الخمسين وعظ بالارتباط بعلاقة الناس بالله. وقد أثَّرت العظة فيهم إلى درجة أنهم صرخوا « مَاذَا نَصْنَعُ أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ؟» (أعمال٢:٣٧). كما أن عظات بولس طوال سفر أعمال الرسل تؤكِّد على علاقة الإنسان بالله وبالقضاء الآتي بسبب الخطية (١٣،١٤،١٧و٢٠).

أنه خاطئ. هناك راحة عظيمة عندما نُخبر بأن المشاكل تحدث بسبب المرض والإضطراب والاختلال الكيميائي والإدمان والذكريات المكبوتة وقلة الثقة بالنفس، أو بسبب الماضي الأليم. وللكثيرين، تكون المشكلة هي كيفية التسويق للكنيسة بطريقة تجعلها مواكبة لأحدث المعتقدات الفكرية والثقافية ولكن بدون المساومة بالكمال الكتابي. إن الهدف هو إحضار المزيد من الناس إلى عظات الإنجيل. وقد ظنوا بأن علم النفس الدنيوي هو أحد الطرق التي تعطي للمسيحية صلة «علمية» ويجعلها أكثر جاذبية. وأنصار علم النفس الدنيوي يُصرُّون على أنه في الواقع يُحسِّن المسيحية. وللأسف، تمت المساومة بشكل هائل بالكمال الكتابي، وبالتالي بالإنجيل. إن خوف الكنيسة من عدم ارتباطها بالعالم الحديث أدى بشكل غير نقدي إلى قبول حكمة الإنسان وإنكار حكمة الله.

وفي هذه الأثناء، أصبحت الكنيسة أضعف وشهدت إنحدارًا شديدًا في التحوُّلات عبر العقود العديدة الماضية. وقادة الكنيسة يسقطون واحدًا تلو الآخر محاولين أن يفعلوا كل ما بوسعهم ليجعلوا الكنيسة «ذات صلة» ولكي يضعوا لها هدفًا. ويتحدث قادة الكنيسة عن «النتائج المؤكَّدة» للمناخ الودود للباحثين، والموسيقى المعاصرة، وهكذا. وإذا كانت أحد المشاكل هي تسمية الخطية مرضًا، فلا شيء أقل من العودة للغة وقصد الكتاب المقدَّس سوف يُصلح هذه المشكلة. فالأشخاص الخطاة بحاجة لأن يتوبوا بدلًا من الاعتماد على وصفة طبية دوائية لتُعالج مشاعرهم.

إن غاية المسيحية هي أن الإنسان خاطئ وأن المسيح مات لكي يصالحه مع الله القدوس البار. والمسيحيين عبر العصور تحفزوا للكرازة

عن طريق إقتناعهم بأن إنجيل يسوع المسيح صـادق. لقد خلق فيهم إحساس بالإضطرار لأن يذهبوا ويخبروا الآخرين. كتب بولس:

إِنِّي مَدْيُونٌ لِلْيُونَانِيِّينَ وَالْبَرَابِرَةِ، لِلْحُكَمَاءِ وَالْجُهَلاَءِ. فَهكَذَا مَا هُوَ لِي مُسْتَعَدٌّ لِتَبْشِيرِكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ فِي رُومِيَةَ أَيْضًا (رومية١: ١٤-١٥).

ولأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا. إِذْ نَحْنُ نَحْسِبُ هذَا: أَنَّـهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ، فَالْجَمِيعُ إِذًا مَاتُوا. وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ (كورنثوس الثانية٥: ١٤-١٥).

لقد كانت محبة المسيح في بولس، ممزوجة باقتناعه بأن ما فعله المسيح كان كاملًا وضروريًا لفداء جميع الناس، هو ما أنشأ إضطرارًا يُحفِّزه للخدمة.

كيف نبدأ مهمة توصيل الإنجيل للمجتمع المؤمن بأن الخطية مرض؟ اخبرهم القصة الكبيرة. ابدأ بالخليقة وأول رجل وامـرأة. اشرح أول فعل للتمرد على الله واللعنة التي وضعها الله على الإنسان كنتيجة لذلك. استمر عبر العهد القديم مع قايين وهابيل وإبراهيم وإسحاقويعقوب وداود وهكذا. وخطوة بخطوة، انشئ بداخلهم نظرة حياتية كتابية بهدف تقديم يسوع المسيح لهم. إن الكرازة الفعالة دائمًا ما كانت تتم بإستخدام المقاطع والآيات المفتاحية التي تتناول الخطية والنعمة والإيمان. والهدف موجود في موت وقيامة يسوع المسيح. فلا يهم ما إذا كنت تعظ من الناموس أو من الأنبياء أو من الكتب التاريخية، أو من كتابات الحكمة،

أو الأناجيل، أو الرسائل؛ فهي كلها تشير إلى الرب يسوع المسيح، الذي مات من أجل خطايانا.

إن مشهد الكنيسة اليوم مربك جدًا. لقد نبذ المسيحيون إلتزامهم بكلمة الله الوافية. وقد تم نصب برج بابل نفسي. والتعريفات والفئات الكتابية قد تغيَّرت وظهرت مـفـردات جديدة بداخل الكنيسة. والسلوكيات والتوجُّهات التي كانت تُعتَبَر من قبل خاطئة تعرَّضت لتغيير هائل. لقد تم إعادة تقييمها. الخطية تُدعى مرضًا. وكلمة «الخطية» اختفت تقريبًا من مفرداتنا. وبذلك، أصبح تأثير الإنجيل على غير المؤمن أقل وضوحًا والحاجة للتكريس المستمر للمؤمن قد تقلَّصت. ومع ذلك، فإنهتوجد في مؤخرة عقولنا، الحقيقة بأن الخطية لا تزال معنا- في مكان ما، في كل مكان. إنه شعور مبهم مضطرب. وبالرغم من أننا نحاول أن نُشعِر أنفسنا بتحسُّن عن طريق تسمية الخطية باسم آخر، إلا أنها دائمًا موجودة هناك. وهي لن تزول تمامًا.